في التأسيس المنهجي للنقد الأسطوري

يبدو أن مصطلح النقد الأسطوري سيقع فيما وقع فيه مصطلح الأسطورة نفسه من قلق واضطراب وغموض ، فلا يوجد في نظري ما يسمى بالنقد الأسطوري، فهي تسمية غير موفقة ، بل يوجد اتجاه نقدي يري الفن من خلال الأسطورة ، أو يري الأسطورة من خلال الفن ، إن الخلط الكبير بين الأجناس الأدبية المختلفة في مصطلح الأسطورة قد أدى بدوره إلى خلط مماثل بين الواقعة الأسطورية في ذاتها، وبينها موظفة ممزوجة ببنية النص الأدبي ذاته، نلحظ هذا الخلط في معظم الخطابات النقدية العربية التى عالجت الشعر القديم والمعاصر معا من خلال المنهج النقدي الأسطوري ، ولعل نظرة نقدية سريعة في هذه الدراسات التى عالجت الشعر العربي المعاصر تؤكد ذلك: نلحظ هذا في دراسة د. يوسف حلاوى عن((الأسطورة في الشعر العربي المعاصر)) ود. أسعد رزوق عن ((الأسطورة في الشعر العربي)) ودراسة عبد الرضا على عن((الأسطورة في شعر السياب)) ودراسة ريتا عوض عن ((أسطورة الموت والانبعاث في الشعر العربي الحديث)) ودراسة رشيد مبارك((ميثات عربية وشرقية في الشعر العربي الحديث)) وعلى الرغم من الجهود النقدية التي قدمها بعض النقاد المعاصرين بخصوص أشكال الأداء الأسطوري في الشعر العربي المعاصر، ووجوب الانتقال من الخلفيات الثقافية للأسطورة إلى منطق أسطورة النص الأدبي ذاته، ووجوب إعطاء النص ابعد من عمقه الظاهر ونقل التجربة من مستواها القريب إلى مستواها الرمزي البعيد ، غير أن هذه التصورات النقدية ظلت قرينة النظر دون التطبيق النصي إلا قليلا، وفي دراسة لمياء باعشن عن ((المنهج الأسطوري في النقد العربي الحديث)) الصادرة في مجلة علامات السعودية لحظت الباحثة بصدد أزمة المنهج النقدي أن معظم النقاد لم يبحثوا العوالم النفسية الدفينة التى تدفع بعض الشعراء إلى توظيف أسطورة بعينها دون سواها في فترة زمنية محددة؟؟ أو تحليل

مضامين النماذج المستلهمة بإبراز الأنماط الكامنة في الذواكر القديمة أو انعكاساتها على هندسة النص الأدبي ، وكان استخدام الأسطورة في الخطاب الأدبي العربي الحديث هو نوع من التجريب الجمالي الذى يقف بها عند مشارف الرمز وابتعاث المشاعر المتعلقة به... علاوة على أن النقد الأسطوري لم يكتسب أي أبعاد أيديولوجية لم تكن مرتبطة به قبل النقل إلى النسيج الثقافي العربي))[٢٨] ، إن الناقدة تلمح من طرف خفي غير واضح أو محدد إلى أزمة المنهج النقدي في التعامل مع الأسطورة بين سياقين ثقافيين جد مختلفين ، السياق الثقافي العربي ، والسياق الثقافي الغربي ، وما يتطلبه ذلك من الناقد من قدرات فكرية وجمالية وحضارية تمكنه من إعادة تكييف النظرية النقدية الغربية، بمراعاتها للسياق الثقافي والجمالي العربيين ، ولعل ذلك قد دفع لمياء باعشن إلى رصد الاضطراب المنهجي في المنهج النقدي الأسطوري ، ترى هذا لدى الدكتور عبد الفتاح محمد احمد في دراسته عن((المنهج الأسطوري في تفسير الشعر الجاهلي)) في قوله ((هذا المنهج محاولة لإيجاد منهج نقدي من هذا النوع يستمد أصوله من ضروب العلم المختلفة يكون أكثر فهما للأدب وأكثر قدرة على تفسيره)) فكيف يكون المنهج نفسه محاولة لإيجاد منهج؟؟ وكيف يكون مستمدا من ضروب العلم المختلفة؟؟ ما شكله النظري والمعرفي؟؟ وما هي إجراءاته التطبيقية؟؟ لا يذكر الباحث أي شيء من ذلك.بينما يرى الدكتور يوسف حلاوى في دراسته عن ((الأسطورة في الشعر العربي المعاصر)) أن ((الشاعر يلجأ إلى استخدام المنهج الأسطوري)) وأنا بدوري أعجب عن كيفية استخدام الشاعر وهو مبدع في المقام الأول للمنهج الأسطوري كي يبدع نصه؟؟!! ثم يحدد الباحث منهجه بصورة غامضة مشوشة غير متماسكة في قوله عن المنهج الأسطوري((هو كل عمل شعري تكشف لنا بنيته عن تركيبة أسطورية، عن طريق شحن الألفاظ بإيحاءات جديدة مضافة إلى معناها

الأصلي)) وهنا نتساءل بدورنا هل مجرد التركيب الأسطوري للنص يتحقق بمجرد شحنه بإيحاءات جديدة إلى معناه الأصلي؟؟ إن هذا الوصف ينطبق على كل نص أدبي سواء وظف الأسطورة أم لم يوظفها. فالأسطورة نفسها نوع من أنواع الاستعارة، وقد كانت تعبير من قبيل ((أفعوان الظلام)) و((معصية الغراب)) تعبيرات حقيقية في العالم البدائي القديم ، وقد تحولت إلى مجازات معاصرة بعد أن بعد البون بين العقل السحري البدائي والعقل الآلي المعاصر، ولكن الفن وحده هو القادر على إعادة الإنسان المعاصر إلى جذوره المجازية الحسية القديمة. ففي أعماق أي صورة شعرية موفقة ترقد أسطورة قديمة، ووراء أي رمز فني أصيل عوالم كلية متشابكة تستنفر الشعور واللاشعور الجمعي معا لدى الفرد والأمة، فالشعر فردى كلى في وقت واحد ، فهو يحتقب في طواياه الجمالية المخزون الكلى للجنس البشرى، بل للأكوان المحيطة به، إننا من جنس المادة التى خلق منها الكون، ونحيا معا هذه الحياة الباطنة المستسرة السارية بيننا وبين الأشياء والموجودات والأكوان جميعها .

إن ما وقع فيه الخطاب النقدي المعاصر من الاضطراب المنهجي البادي في الممارسات التطبيقية للمصطلح النقدي الأسطوري ، وقع فيه أيضا الخطاب النقدي المعاصر في ممارساته النقدية التطبيقية على الشعرية القديمة، نرى هذا لدى معظم الجيل الأول من الباحثين العرب الذين ساووا بين الأسطورة، والحكاية الشعبية في الممارسة النقدية التطبيقية ، أو ساووا بين الأسطورة في ذاتها بوصفها بنية معرفية خاصة ، وبين النص الأدبي متجاهلين أدبيته وبنيته الجمالية المستقلة، وكأننا بصدد محاكاة كلاسيكية جديدة يسيطر عليها التقرير والمساواة بين الشعر والواقع، فمعظم هؤلاء النقاد أجادوا الاستفادة من منهجيات التحليل المتعددة في البنيوية الأنثربولوجية خاصة لدى فلاديمير بروب في دراساته عن مورفولوجية الحكاية

الشعبية، فقد عالجوا النص الأدبي من علوم خارجة عنه، نرى هذا لدى نبيلة إبراهيم في بحثها في المأثورات الشعبية أو القص الشعبي ، ولدى عبد الفتاح كيليطو في دراسته عن العين والإبرة في ألف ليلة وليلة ، ودراسات سعيد يقطين، وأحمد كمال زكى في دراسته المقارنة عن الأساطير ، ودراسته في النقد الأدبي، ونصرت عبد الرحمن في دراسته عن الصورة في الشعر الجاهلي على ضوء النقد الحديث ، وأحمد شمس الدين الحجاجى في دراسته عن الأسطورة في الشعر.. المكونات الأولى)) وغيرها، ومصطفى الشورى وإبراهيم عبد الرحمن محمد في دراساتهم عن الشعر الجاهلي، وعبد الجبار المطلبى في دراسته ((قصة الثور وتفسير وجودها في القصيدة الجاهلية)) وعبد القادر الرباعي في دراساته : عن (الطير والمعتقد في الشعر الجاهلي) و(الطير وعالمه الحيواني في الشعر الجاهلي) ودراساته عن الصورة ((مدخل إلى دراسة المعنى بالصورة في الشعر الجاهلي))، وأنس داؤد في دراسته عن((الأسطورة في الشعر العربي الحديث)) ولدى الجيل التالي لهم مثل على البطل في دراسته عن الصورة في الشعر العربي حتى نهاية القرن الثاني ، وإبراهيم عبد الحميد محمد ، ودراسة الدكتور أنور عليان أبو سليم عن((قصة ثور الوحش ودلالاتها الرمزية في الشعر الجاهلي ، والدكتور إبراهيم محمد على في دراسته عن ((اللون في الشعر العربي قبل الإسلام : قراءة ميثولوجية))، ود. رشيد مبارك في دراسته عن ((ميثات عربية وشرقية في الشعر العربي الحديث)) ، والدكتور أحمد إسماعيل النعيمى في دراسته المطولة عن ((الأسطورة في الشعر العربي قبل الإسلام)) غير أننا نستثنى من هذه الدراسات دراستين هامتين للغاية اطلعنا عليهما فرأيناهما قد خلتا إلى حد كبير من اختلاط واضطراب المصطلح النقدي والإبداعي معا، وهما دراسة الدكتور أبو القاسم أحمد رشوان عن ((الفرس والقلق الحياتي في الشعر الجاهلي))[٢٩] ودراسة الدكتور

إسماعيل أحمد العالم عن ((من مواطن ورود النخلة في الشعر الجاهلي))[٣٠] وهاتان الدراستان نأتا عن معظم مثالب المنهج النقدي الأسطوري في الخطاب النقدي المعاصر. وليس المجال كتاحا لنا هنا بما فيه لكفاية حتى نبسط القول في ذلك .

إن معظم الدراسات السابقة قد عانت من الاضطراب والغموض وعدم الدقة العلمية في تطبيقاتها المنهجية على النص الأدبي، نلحظ هذا الاضطراب من مجرد تسمية المنهج صعودا إلى ممارساته التطبيقية المتعددة سواء على الشعر القديم أو الشعر المعاصر، فنحن نرى النقاد جد مختلفين في ترجمة اسم المنهج فبعضهم يطلق عليه النقد الطوطمي وبعضهم يقول بالنقد الشعائري وفريق يسميه النقد الأسطوري وآخرين يقولون بالنقد النموذجي ولكل أحد من هؤلاء النقاد تبريراته المنهجية وأدواته الإجرائية ، فإذا انتقلنا إلى التطبيقات النقدية وجدنا فريقا من النقاد كما أشرت آنفا يساوى بين الأسطورة والنص مساواة قائمة على المحاكاة المادية المباشرة، وبصورة تجعل من النص الشعرى محفوظات ثقافية كان فى مكنة الشاعر أن يقولها دون أن يضطر إلى إبداع النص الشعرى ، وعلى الرغم من تحذير بعض النقاد مثل الدكتور إبراهيم عبد الرحمن من ((هؤلاء الشعراء قد أحدثوا كثيرا من التحريف فى هذه الأصول الميثولوجية))[٣١] غير أن النقاد ظلوا فى أماكنهم القديمة يطابقون بين النص الشعرى بوصفه فعالية جمالية فى المقام الأول ، وبين النص الأسطورى بوصفه بنية نظرية معرفية قديمة، لقد ذهب النقاد يبحثون الشعائر الدينية الجاهلية لا البنية الجمالية الخاصة للنص الشعرى، ولعل هذا التصور هو ما دفع بالناقد المغربى الولى محمد إلى تقديم وجهة نظر نقدية مهمة فى كتابه عن ((الصورة الشعرية فى الخطاب البلاغى والنقدى)) عن بعض الممارسات النقدية التطبيقية التى قدمها الدكتور على البطل فى كتابه عن ((الصورة فى الشعر العربى حتى نهاية القرن

الثانى الهجرى)) حيث طابق على البطل بين الصورة الشعرية والرمزية الأسطورية، يقول الولى محمد((إننا ونحن نتناول الشعر من الزاوية الأسطورية نخرج من مجال الأدب إلى مجال علم النفس أو الأنثربولوجيا أو حتى تاريخ الأديان، ولهذا فإن هذا التناول للشعر لا تدرك منه إلا هذه الصفة((الأسطورية)) التى تجمعه بغيره: الأحلام والطقوس والممارسة التخييلية... وهذه الوسائل المعتمدة ليست داخلة فى نظرية الأدب، إنها تمثل موضوعا مغايرا، ولهذا فإن العلاقة بين التناول الأدبى أى البلاغى، وبين التناول الأسطورى للشعر لاينبغى فهمها على أساس أن أحدهما يدرس ما يميز الأدب عن غيره من البلاغة، والآخر يدرس جانبا يجمع الدب بغيره، أى انه جانب لا يميز الأدب ((الدراسة الأسطورية))[٣٢]، وقد لحظ أيضا الدكتور وهبة رومية فى دراسته عن((شعرنا القديم والنقد الجديد)) تحت عنوان ((رؤية تقويمية لموقف المدرسة الأسطورية فى نقد الشعر القديم)) أن المنهج النقدى الأسطورى فى خطابنا النقدى المعاصر، اتصف بالرغبة المحمومة فى التجديد لدى معظم النقاد بكل ما تتصف به هذه الرغبة من((الانبهار والتشتت والانتقاء وعدم الوضوح واللهفة إلى اللحاق بالحداثة وغياب المنهج والقفز بين الاتجاهات النقدية....))[٣٣] .

لقد ساوى النقاد بين الشعر والواقع، بين المجاز واللغة التداولية للأسطورة، بين النظرية النقدية والنص الشعرى ، مدعين الحداثة لشعرنا ولتراثنا، وهى حداثة مموهة بطبيعة الحال ينقصها الوعى بالنص والنظرية معا سواء فى سياقها الغربى، أو سياقها العربى، إن هذا الهدر للسياقات الثقافية بين النظرية فى إطارها الغربى وبينها فى الواقع الثقافى العربى، قد أهدر كثيرا من النشاط اللغوى الخلاق لسياق النص الشعرى ذاته، الذى تتجاوز كلماته وسياقاته المقولات النظرية والمعرفية للنظرية النقدية من جهة، أوالدلالات الحرفية المباشرة للأسطورة وما يكتفها من وقائع

طقوسية ومعرفية واجتماعية خاصة بها من جهة ثانية، كما أننا نلاحظ عدم قدرة الجيل الثانى من النقاد وأقصد بهم الجيل التالى لجيل الرواد ممن وظفوا المنهج الأسطورى فى ممارساتهم النقدية، نلاحظ أيضا عليهم إلا فى القليل النادر من النقاد الجادين، وقد أشرنا إلى بعض منهم فى الدراسات السابقة، ونضيف إليهم هنا دراسة مصطفى حسن حداد فى مجلة علامات السعودية عن((أثر التصميم الأسطورى فى بنية القصيدة الجاهلية))[٣٤] ، نلاحظ على معظم نقادنا المعاصرين ممن تلى الجيل السابق، التشوش والاختلاط والارتباك المصطلحى فى المنهج، وعدم قدرة المنهج لديهم على تحديد مقولاته النقدية النظرية المتماسكة من جهة، وتعثر إجراءاته التطبيقية من جهة أخرى، وعدم قدرته على التكيف والملائمة للهموم الحضارية العربية من جهة أخيرة، وهذا بدوره يؤدى إلى أزمات نقدية مركبة السياقات، وأظهر هذه الأزمات يتمثل فى هدر السياقات النقدية بين النقاد، فاللاحق لايقرأ السابق، ولا يفيد منه بصورة نقدية خلاقة، بل نجد هذا التكرار النقدى، والاستنساخ الثقافى بين السابق واللاحق منهم، وكأننا فى عمودية جديدة للنقد العربى. ولقد انتبه الدكتور سمير سعيد فى دراسته المهمة((مشكلات الحداثة فى النقد العربى الحديث)) إلى بعض وجوه هذه الأزمة المنهجية فى الخطاب النقدى المعاصر فقال:((إن التواصل النقدى المنهجى الأصيل لا يتحقق بين الثقافتين إلا إذا أحدث الناقد مرونة *(plastisite)* وتفاعل *(interaction)* داخل إطاره الثقافى العام والخاص بين ما هو جديد وما هو قديم بجانب البحث عن أسس التكيف المتبادل بينه وبين القارىء لمحاولة دمج *integration* فكره فى بنية فكر جماعته الخاصة وبنية فكر جماعته العامة))[٣٥]،وقد قام أخيرا الدكتور محمد أبو المجد على البسيونى، بدراسة قيمة طبقها على أعمال الرواد بخصوص نقد أعمالهم النقدية التى وظفت مصطلح النقد الأسطورى فى نقودهما

التطبيقية المتعددة، فالدراسة تنتمى إلى تيار نقد النقد فى الخطاب النقدى المعاصر وقد أطلق عليها الناقد ((اتجاه معاصر فى دراسة الشعر العربى القديم ، الاتجاه الأسطورى: الاتجاه الجاهلية))[٣٦] وهى دراسة جادة فى الخطاب النقدى المعاصر ترصد وجوه المثالب والتوفيق فى التطبيق النقدى، لكنها لاتقدم مقترحا نقديا جديدا يقى المنهج النقدى الأسطورى بعض المثالب التنظيرية والإجرائية معا، وفى كل الأحوال نشير هنا إلى وجوب إفادة النقد من معظم الحقول المعرفية الأخرى حتى يكتسب الناقد رؤية نقدية ثاقبة من خلال الاستبصارات المنهجية المتجادلة بين المناهج، غير أن المزج المنهجى البصير الذى يأخذ بيد الباحث إلى العالم الجمالى الداخلى للنص شيء يشوبه كثير من المزالق المنهجية، ويخضع فى النهاية لقدرة الناقد على تكييف المقولات النقدية لصالح النص الإبداعى نفسه، بحيث يمتلك الناقد القدرة على اختبار مقولات المنهج أكثر مما يجعل هذه المقولات تتحكم بخط سير الجدل الجمالى المتفاعل فى بنية النص .